

أعلام معاصرون:

محمد عبد المطلب

١٨٧٠ - ١٩٣١ م

للشيخ محمد رجب البيومي

(بقة ما نشرق العدد الماضي)

ولقد انتقل رحمه الله إلى عدة مدارس ابتدائية وثانوية حتى اختير أستاذاً بمدرسة القضاء الشرعي ، وكانت شهرته قد طارت إليها بما نشره من حين لآخر في الصحافة ، فاستقبل بالتعجب والترحيب ووجد نفسه أمام عقول مستنيرة تفهم آراءه وتسير معه في اتجاهه ، فأخذ يفرس في نفوسهم حب الأدب والفضيلة ويدهمهم إلى التمسك للربية في وقت هوجت فيه من أعدائها المنتصبين . ولقد غالى في ذلك مخالفة عدها الكثيرون رجعية وجوداً فكان لا يحفل بما تخرجه المطبعة العربية من الكتب الحديثة بل يبحث على الانتفاع بالآثار الأدبية القديمة أولاً وقبل كل شيء ، فإذا ما درست دراسة وافية كان المجال فسيحاً لغيرها ، ثم شفع القول بالعمل فأخذ ينهج في إنتاجه نهج القدامى من فطاحل العصر العباسي ، فكان يبتدىء قصائده بالنزل الرائق ، مكثراً من الغريب المجلجل ، مستعميلاً بخياله البدوي في التوليد والتصوير ، وتلك منه كبرى أسداها إلى الأدب العربي ، فهو يذكر الناس بين الفينة والفينة عن بنسج على منوالهم فيفيثون إلى الدواوين القديمة باحثين مستفيدين ، ولا شك أن الأدب العربي كان في مبدأ هذه النهضة محتاجاً إلى المحافظ أكثر من احتياجه إلى المجدد ، وإلا فكيف نتشوق بالابتداع والتجديد ، وترائنا الرائم القويم لا يزال في ظلمات النسيان تشيح عنه الوجوه وتستعجمه الأفهام !

وأحب أن أكشف عن حقيقة مطموسة ، فالذائع المشهور أن أمير الشعراء هو أول من كتب الروايات المسرحية الشعرية . فقد أصدر أولى رواياته « كيلوباره » سنة ١٩٢٨ م ثم أعقبها بعدة روايات مشهورة ، والواقع أن عبد المطلب قد سبقه إلى ذلك

بعشرين عاماً ، فقد نظم في سنة ١٩٠٩ وما بعدها بضع روايات شعرية ذات فصول ومناظر تمثيلية ، وقد جعلها متينة الحوار ، سريعة الحركة ، حسنة المفاجأة . وكالها عربية بدوية تتخذ أسماء لامعة في تاريخنا الأدبي « كالمهل » و « امرئ القيس » و « ليلي الغفيرة » ومن المؤلف حقاً أنها لا تزال في غمرة الجحود مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ولعلنا نجد من يخرجها للناس في ثوبها اللائق ، فهي وحدها الدليل على تجديد عبد المطلب وتنبهه إلى عنصر هام من عناصر الشعر قد أثبتت الحياة مزيد احتياجنا إليه ، فليت الذين رجفون بحفاف الشاعر وجوده يلتفتون إلى هذه المأثرة الخالدة ثم يحكمون ! !

وأنت إذا نظرت إلى المآخذ التي توجه إلى شعره تجدها منصبية على نقله في الأخيلة الصحراوية ، وهيامه بالأماكن البدوية وإكثاره من الغريب الفحل ، مما يعتبر محاكاة وترسماً لا تجديداً وابتداعاً ، وفي رأبي أن عبد المطلب بالذات غير ملموم في ذلك ، لأنه عربي صريح نشأ في بيت يفخر بانتمائه إلى الجزيرة العربية ، فهو حين يهتف بنجد والعقيد وسامع إنما يبر عن وجد مشبوب ، ويحن حينئذ محرقاً إلى أماكن يمتز بها مدى الحياة ، فلا عليه إذا جال في هذا الميدان وصال ، وأحرى بنا أن نوجه هذا النقد إلى غيري كلبارودي مثلاً ممن لا ينتمون إلى الجزيرة ولا يشعرون نحوها بباطفة وانجذاب ! !

وإذا كنا نعد من حسنات الفرزدق على اللغة العربية أنه أحيا ثلثها في شعره ، فلماذا ننكر على عبد المطلب إكثاره من الغريب المستساغ في وقت جاهر فيه أعداء اللغة بمجزها عن مسارة الحياة ، ألا يكون ذلك توجيهاً صالحاً منه إلى تحصيل اللغة ودراسة معاجمها الواسعة حتى تستعفا بما نفتقر إليه من كلمات ! !

هذا وقد شاعت الظروف السياسية أن ينتقل من مدرسة القضاء الشرعي إلى مدارس وزارة الأوقاف ! ! فحبل بينه وبين العقول المتأززة التي كانت تنتفع بآرائه وتوجيهه ، ووجد نفسه أمام طائفة أخرى لا تزال في الدور الأول من التعليم ! !

وقد اعتبر التقيد وجوده في مدارس الأوقاف بمنه قاسية قابلاً بالصبر الجميل ، على أنها كانت في الواقع محمداً جميلة . فقد خلس من دروسه العميقة في القضاء الشرعي ، وعكف على الإنتاج

والقصيدة كلها وقد تجاوزت المائتين تضرب على هذا الوتر الرنان ، وطبيبي أنها لم تنشر في حينها بل ظلت في مدرجة النسيان حتى قرأناها بالديوان !! والمجيب أن عبد المطلب - بعد انتقاله من سوهاج - لم ينشر خرائده تباعا في الجرائد اليومية كما فعل قرائه بل ظل محتفظاً بها في مسوداتها غير اليسير مما أنشده في المحافل العامة وسارعت الصحافة إلى تدوينه !! ولملك تقف مى من هـ ذا على تواضعه الجم وعزوفه عن الشهرة ، ولا أدري أى ذخيرة غالية قدسها الأستاذ المرادى إلى العربية يوم جمع قصائد الفقيد في سفر خاص فكانت كأس النديم وعبير المشتاق على أن مدة الشاعر لم تطل بوزارة الأوقاف في سنة ١٩٢٦ تقلد وزارة المعارف المرحوم جعفر والى باشا ركان دا انصار حيد بأرباب الفكر وحمة الجراح ، فاعتم عبد المطلب هذه المناحة وتقدم إليه آملا في الأخذ بيده ، وكان الوزير الأرمحي عند ظنه الحسن به فقد استصدر أمراً من مجلس الوزراء بنقله إلى التدريس في دار العلوم مع إعفائه من الكشف الطبي إذ كان الشاعر يشكو ضعفاً في قوة إبصاره ، ولا تسئل عن فرحته بالعودة إلى وسط ممتاز يشجعه على الدرس الجيد والبحث الفريد ، ولم يرغب الشعر مكافأة طيبة يهديها إلى معالي الوزير فشكره بقصيدة عامرة قال فيها

أما الروض حياه ولى بديمة عليه بأسباب الحياة استهلت
عداه الردى أحياء لمصر وأهلها ما تر من عهد ابن يحيى تولت
(جزى الله عنا جعفر أحياناً أزلقت بنا نعلنا في الواطئين نزلت)

ولم يلهمه التدريس مدار العلوم عن الاتصال بالجمهور عن طريق الصحافة ، فقد كان ينشر أبحاثه الأدبية دراكاً ، وحين ظهر كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين سارع إلى نقده في جريدتى الأهرام والمقطم ، ثم تشعب به النقاش نخاض المعركة الحامية بين الجديد والقديم . وأخذت الردود الكثيرة تتوالى على نقده وهو يناقشها مأخذاً مأخذاً حتى عد عند الكثيرين عميداً للمدرسة القديمة الانبعاثية ، ولقد طبمت هذه المهادة بطابع خاص ، فكان يتمدد في أكثر إنتاجه أن يكون كما عهد الأدباء في صدر شبابه جزلاً خلا . وأذكر أنه ما أقيمت حفلة أدبية إلا ودعى إليها عبد المطلب باعتباره ممثلاً للمذهب القديم أصدق تمثيل . وكان السامعون ينتظرون الديباجة العربية منه في شوق وانجذاب ، وفي الحفلة التى بويج فيها شوق بأماراة الشعر وقف عبد المطلب باق قصيدته فهمس أديب كبير في أذن شوق امرؤ القيس امرؤ القيس ا

الأدب الرفيع ، وكانت الحرب العظمى الأولى في ذلك الوقت مندلمة الاءيب . ثم تلتها الثورة المصرية الصاخبة ، فوجد الشاعر من أحداث زمانه ميادين شاسعة يخلق فيها بحيااله الجروح ، وحين نطالع ديوانه نجد حافلاً بالقصائد السياسية التى نعتير في الواقع وثائق تاريخية صحيحة يمتج بها الباحثون ، فما من عاصفة سياسية هبت بمصر إلا خلدها عبد المطلب في شعره الرائع - إلى جانب ما كان يكتبه من مقالات طنانة الدوى عميقة التأثير - ولملك تسأل مى لماذا لم تذكر سياسياته الشعرية كما ذكرت سياسيات حافظ إبراهيم ؟ والجواب على ذلك أن الشعر السياسى شعر شعبي لا يدور على الألسنة إلا إذا كان -هـلا واضحاً يفهمه العامى قبل المثقف . وقد كان حافظ رحمه الله يأتى في السياسيات بنوع خاص بما يناسب عقل الجمهور ، فطار شعره السياسى كل مطار . ورواه الريفيون في القرى قبل المثقفين في الأندية ، أما عبد المطلب فقد كان محافظاً على نسجه الرصين وجزائه القوية ، فنجبا شعره من العامة وظل منها راتماً رده المثقفون ، وإذا شئت الدليل على ذلك فقرأ قصيدة حافظ في سمد زغلول يوم اعتدى عليه ومطلعهما

الشعب يدعو الله يا زغلول أن يستقل على يدبك النيل
ثم اقرأ قصيدة عبد المطلب في هذا الموضوع

رى وسهام الله في نحره رد فلا تأس حاطتلك العناية باسمد
فإنك بلا شك ستسارى فيما أقول

وأود أن أنبه القارىء إلى قصيدة عبد المطلب في الحرب العظمى نهى وحدها كافية للتدليل على مذهبه في الشعر . ولقد عبر فيها عن إحساس الشعب المصرى أصدق تعبير ، فكانت سوطاً نارياً يلهب ظهور الإنجليز ، وقد مكنتنا سببين عاماً نضج من القنصيين وزرى بأعيننا كتاب الاستعمار رائحة إلى الحانات والواخير ، بينهم كون الحرم . ويصرعون الغفة ، ولكن لم نجد في شعرنا من صور هذه الناظر المنجولة في جزالة لفظ وقوة أمر ، غير عبد المطلب حين قال :

تبصر خليلي هل ترى من كتاب دلفن بها كالسيل من كل مودق
سراعاً إلى الحانات بحمهم بها نعماً غشى زرداً خلف زردق
يهولك مرآها إذا اصطخبت بهم مواخير تجلو فاسقات لفسق
إذا أجلبوا فيها حسبت ضفادعاً تماذجين إيقاعاً على صوت تقنق
زعانف شتى من طويل مشذب طرى القرى عارى الأشاجع أعنق
ترى منه في مجبوحة الأمن بأسلا وإن يدعه الدامى إلى الكر يخبق

تقييد



بين العامية والعربية :

تقدم الأستاذ محمد فريد أبو حديد عضو الجمع اللغوي وعميد معهد التربية إلى الجمع يبحث معلول عن موقف اللغة العامية من العربية الفصحى عرض فيه لخصائص العامية وما لها من الآثار الجميلة في ممارض الكلام كالزجل والموشحات والقوما والدوبيت، وتناول ما كان لها من تطور في الشرق وفي بلاد الأندلس ثم في باقي الجهات الأخرى، وأنهى من ذلك إلى القول بوجوب دراسة العامية والاهتمام بها ووضع الوسائل للتقريب بينها وبين الفصحى حتى تلتقى لغة الكتابة ولغة الكلام .

ولست هذه الدعوة التي يرتفع بها صوت الأستاذ أبو حديد اليوم بالأمر الجديد، ولعلها دعوة قديمة بالية ارتفع بها الصوت في مصر منذ أكثر من خمسين عاماً، وتاوت فيها عجايب الكلام واشتجرت حولها أقلام الباحثين، وقد استطاع أساتذة ذلك الجيل أن يصغوا حساسها وأن يفرغوا من تفنيدها وأن يأتوا في ذلك عمالاً مزيد عليه .

كان رأس تلك الدعوة رجل انجليزي موظف في مصر يدعى « ويلسكوكس »، وكان هذا الرجل داهية، درس اللغة العربية، واللغة العامية أيضاً وكان عمله الأصيل في شئون الري والصرف، ولكنه أثار بين المصريين الدعوة إلى العامية بحجة أنها لغة الكلام، وأنها قريبة من الأفهام، ومن المجيب أن ذلك الرجل أنشأ مجلة يومذاك سماها « الأزهر »، وكان يصطنع النيرة على العربية وعلى الإسلام وعلى المصريين فيما يدعو إليه، وبحت ستار تلك النيرة كان يحاول أن يسد الطمعة النجلاء إلى العربية وإلى الإسلام وإلى المصريين .

وبيننا كثيرون يذكرون أن الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا كان له مجال في مرض تلك الدعوة، فقد كتب مقالين في « الجريدة » أيام كان يقوم على تحريرها يدعو فيها إلى تمعير

وتكلم عبد المطلب فضج الحفل بالتصفيق الشديد !! ولقد كان مظهره في الجامعة المصرية يوم ألقى قصيدته العلوية سنة ١٩١٩ رائماً جميلاً فقد ركب ناقته ومضى ينشد طويلته متشبهاً بأجداده البادين، وكان الحفل الحاشد مأخوذاً بما يرى ويسمع، فن تدفق في البيان وطرافة في الموضوع، إلى غرابة في المنظر وبمد في الأتجاه، ولقد طال نفسه فيها حتى جاوزت قصيدته أربعاًة بيت تفرؤها في مئة رارتياح فلا نجد غير القوى الرصين ! !

أما أخلاقه الرقيقة فقد كانت دينية مثالية تبحث عنها فلا نجدها عند الذين يتظاهرون بالورع ويتشدقون بالعبادة وليسوا من ذلك في قليل أو كثير، فعبد المطلب قد درس التمام الإسلامية ثم طبقها على نفسه واتخذها منهجاً يسير عليه . فكان عف اللسان، سلب العقيدة، راسخ الإيمان طاهر الذليل، متمسكا بتقاليد قومه، راعياً في الزهد الصوفي الذي ورثه عن أبيه، وقد اشترك في جميات إسلامية كثيرة . كالمواساة الإسلامية والشبان والهداية، والمحافظة على القرآن الكريم بأدلالها ما يستطيع بذله من مال وعتاد

قال شيخنا الأستاذ الاسكندري « وكان شديد المصيبة لسلف هذه الأمة وقوادها وعلماؤها وشعرائها فلا يكاد يسمع بمحدث مزير عليها أو غاض من كرامتها حتى يقضب لها غضبة الليث المصور وينبرى له تزييفاً وتهجيناً نظماً وكتابة وخطابة »

هذا وقد انتدب في سنة ١٩٢٨ للتدريس في تخصص اللغة العربية بالأزهر الشريف، وظل به حتى لقي ربه راضياً مرضياً عنه بما قدم لدينه وامتته من العمل الصالح، وكان قد أحيل إلى المعاش من دارالمعلم قبل وفاته بشهر واحد . وحين جاءه اليقين خرجت الدنيا تشيمه في حفل مهيب التقى فيه أصدقاؤه بتلامذته المديدن باكين منتحين، رأى الناس الوفاء للأدب واللم متملاً حول نمشه في جمع حاشد وصفه المرادى فقال :

لقد مشت الدنيا وراءك خشماً

رما كنت في سلطان حل ولاعتد

الا إنها كانت قلباً ندامت

على الود عشى حول نمشك في حشد

محمد رجب البيومي